﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ
رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ
وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا مصير الكافرين الذين يشككون فى القرآن ليتخذوا من ذلك عذراً لعدم الايمان . قال : إذا كنتم قد اخترتم عدم الايمان ، بما أعطيتكم من اختيار فى الدنيا ، فإنكم فى الآخرة لن تستطيعوا ان تتقوا النار . ولن تكون لكم إرادة .

ثم يأتى الحق تبارك وتعالى بالصورة المقابلة . والقرآن الكريم إذا ذكرت الجنة يأتى الله بعدها بالصورة المقابلة وهى العذاب بالنار.وإذا ذكرت النار بعذابها ولهيبها ذكرت بعدها الجنة . وهذه الصورة المتقابلة لها تأثير على دفع الايمان فى النفوس . فإذا قرأ الانسان سورة للعذاب ثم جاء بعدها النعيم فإنه يعرف أنه قد فاز مرتين . فالذى يزحزح عن النار ولايدخلها يكون ذلك فوزا ونعمة ، فإذا دخل الجنة تكون نعمة أخرى . ولذلك فإن الله تعالى يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ولم يقل سبحانه ومن أدخل الجنة فقد فاز . لأن مجرد أن تزحزح عن النار فوز عظيم . . وفى الآخرة. وبعد الحساب يضرب الصراط فوق جهنم ، ويعبر من فوقه المؤمنون والكافرون . فالمؤمنون يجتازون الصراط المستقيم كل حسب عمله منهم من يمر بسرعة البرق . ومنهم من يمر اكثر بطأ وهكذا ، والكافرون يسقطون فى النار .

ولكن لماذا يمر المؤمنون فوق الصراط . والله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢ ﴾

(سورة مريم)

لأن مجرد رؤية المؤمنين لجهنم نعمة كبرى ، فحين يرون العذاب الرهيب الذى أنجاهم الايمان منه يحس كل منهم بنعمة الله عليه . أنه أنجاه من هذا العذاب . وأهل النار وأهل الجنة يرى بعضهم بعضاً . فأهل الجنة حينما يرون اهل النار يحسون بعظيم نعمة الله عليهم . إذ أنجاهم منها ، وأهل النار حين يرون أهل الجنة يحسون بعظيم غضب الله عليهم ان حرمهم من نعيمه ، فكأن هذه الرؤية نعيم لأهل الجنة وزيادة فى العذاب لأهل النار . . والله سبحانه وتعالى يقول :
«وبشر» والبشارة هى الاخبار بشىء سار قادم لم يأت وقته بعد . فأنت إذا بشرت إنساناً بشىء أعلمته بشىء سار قادم . والبشارة هنا جاءت بعد الوعيد للكافرين .

والإنذار هو اخبار بأمر مخيف . لم يأت وقته بعد .

ولكن البشارة تأتى أحيانا فى القرآن الكريم ويقصد بها الكفار . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ ﴾

(سورة الجاثية)

البشارة هنا تهكمية من الله سبحانه وتعالى. فالحق تبارك وتعالى يريد أن يزيد عذاب الكفار ، فعندما يسمعون كلمة «فبشرهم» يعتقدون أنهم سيسمعون خبراً ساراً ، فيأتى بعدها العذاب الأليم ليزيدهم غما على غم .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

البشرى هنا إعلام بخير قادم للمؤمنين ، والايمان هو الرصيد القلبى للسلوك . لأن من يؤمن بقضية يعمل من أجلها ، التلميذ يذاكر لأنه مؤمن أنه سينجح ، وكل عمل سلوكى لابد أن يوجد من ينبوع عقيدى . والايمان أن تنسجم حركة الحياة مع ماق القلب وفق مراد الله سبحانه وتعالى : ونظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان . . فكأن العمل الصالح ينبوعه الايمان . ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

(سورة العصر)

وفى آية اخرى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٣ ﴾

(سورة فصلت)

ولكن هل يكفى الاعلان عن كونى من المسلمين ؟ لا بل لابد ان يقترن هذا الاعلان بالعمل بمرادات الله سبحانه وتعالى

الحق سبحانه وتعالى يُريدُ أن يلفتنا . . الى أن قولنا « لا اله الا الله محمد رسول الله » . . لابد أن يصاحبه عمل بمنهج الاسلام . . ذلك أن نطقنا بالشهادة لا يزيد فى ملك الله شيئا . . فالله تبارك وتعالى شهد بوحدانية ألوهيته لنفسه ، وهذه شهادة الذات للذات . . ثم شهد الملائكة شهادة مشهد لأنهم يرونه سبحانه وتعالى . . ثم شهد أولو العلم شهادة دليل بما فتح عليهم الله جل جلاله من علم . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يعملوا بالمنهج .. لماذا ؟.. حتى لاتتعاند حركة الحياة بل تتساند .. وما دامت حركة الحياة مستقيمة .. فإنها تصبح حياة متساندة وقوية .. وعندما انتشر الاسلام فى بقاع الأرض لم يكن الهدف أن يؤمن الناس فقط لمجرد الايمان .. ولكن لابد أن تنسجم حركة الحياة مع منهج الاسلام .. فإذا ابتعدت حركة الحياة عن المنهج .. حينئذ لا يخدم قضية الدين أن يؤمن الناس أو لا يؤمنوا .. ولذلك لابد أن ينص على الإيمان والعمل الصالح .. « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » .. والصالحات هى جمع صالحة .. والصالحة هى الأمر المستقيم مع المنهج ، وضدها الفساد .. وحين يستقبل الإنسان الوجود .. فان أقل الصالحات هو أن يترك الصالح على صلاحه أو يزيده صلاحا .

الحق تبارك وتعالى يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحتها الأنهار .. والجنات جمع جنة ، وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة .. وهناك درجات فى كل جنة أكثر من الدنيا .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

الجنات نفسها متنوعة .. فهناك جنات الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات نعيم .. وهناك دار الخلد ، ودار السلام ، وجنة المأوى .. وهناك عِلّيون الذى هو أعلى وأفضل الجنات .. وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى .. وهو نعيم يعلو كثيرا عن أى نعيم فى الطعام والشراب فى الدنيا ..

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ .. وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع . والله جل جلاله فى هذه الآية يَعِدُ بأمر غيبى .. ولذلك فإنه لكى يقرب المعنى الى ذهن البشر .. لابد من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة .. أى عن واقع نشهده . واقرأ ، قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة السجدة)

إذن ما هو موجود فى الجنة لا تعلمه نفس فى الدنيا . . ولا يوجد لفظ فى اللغة يعبر عنه . . ولا ملكة من ملكات المعرفة كالسمع والنظر قد رأته . . ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التى تتناسب مع عقولنا وإداركنا . . فقال تعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » . .

على أن هناك آيات أخرى تقول : « تجرى تحتها الأنهار » ما الفرق بين الاثنين . . تجرى تحتها الأنهار . . أى أن نبع الماء من مكان بعيد وهو يمر من تحتها . . أما قوله تعالى : « من تحتها الأنهار » فكأن الأنهار تنبع تحتها . . حتى لا يخاف انسان من أن الماء الذى يأتى من بعيد يقطع عنه أو يجف . . وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باق وخالد . .

وما دام هناك ماء فهناك خضرة ومنظر جميل ولا بُدّ أنْ يكون هناك ثمر . . وفى قوله تعالى : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » . . حديث عن ثمر الجنة . . وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا . . إنك فى الدنيا لابد أن تذهب الى الثمرة وتأتى بها أو يأتيك غيرك بها . . ولكن فى الجنة الثمر هو الذى يأتى اليك . . بمجرد أن تشتهيه تجده فى يدك . . وتعتقد أن هناك تشابها بين ثمر الدنيا وثمر الجنة . . ولكن الثمر فى الجنة ليس كثمر الدنيا لا فى طعمه ولا فى رائحته . . وإنما يرى أهل الجنة ثمرها ويتحدثون يقولون ربما تكون هذه الثمرة هى ثمرة المانجو أو التين الذى أكلناه فى الدنيا . . ولكنها فى الحقيقة تختلف تماما . . قد يكون الشكل متشابها ولكن الطعم وكل شىء مختلف . .

فى الدنيا كل طعام له فضلات يخرجها الانسان . . ولكن فى الآخرة لا يوجد للطعام فضلات بل ان الانسان يأكل كما يشاء دون أن يحتاج إلى إخراج فضلات ، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة فى التكوين . .

اذن ففى الجنة الأنهار مختلفة والثمار مختلفة . . والجنة يكون الرزق فيها من الله سبحانه وتعالى الذى يقول « للشىء كن فيكون » . . ولا أحد يقوم بعمل .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : «ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون»

الزوجة هى متعة الإنسان فى الدنيا إن كانت صالحة . . والمنغصة عليه إن كانت غير صالحة . . وهناك منغصات تستطيع أن تضعها المرأة فى حياة زوجها تجعله شقيا فى حياته . . كأن تكون سليطة اللسان أو دائمة الشجار . . أو لا تعطى اهتماما لزوجها أو تحاول اثارته بأن تجعله يشك فيها . . أما فى الآخرة فتزول كل هذه المنغصات وتزول بأمر الله . فالزوجة فى الآخرة مطهرة من كل ما يكرهه الزوج فيها ، وما لم يحبه فى الدنيا يختفى . فالمؤمنون فى الآخرة مطهرون من كل نقائص الدنيا ومتاعبها وأولها الغل والحقد . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فمقاييس الدنيا ستختفى وكل شىء تكرهه فى الدنيا لن تجده فى الآخرة . . فإذا كان أى شىء قد نغص حياتك فى الدنيا فإنه سيختفى فى الآخرة . . والحق تبارك وتعالى ضرب المثل بالزوجات لأن الزوجة هى متعة زوجها فى الدنيا . . وهى التى تستطيع أن تحيل حياته الى نعيم أو جحيم . .

وقوله تعالى : « وهم فيها خالدون » . . أى لا موت فى الآخرة ولن يكون فى الآخرة وجود للموت أبدا ، وإنما فيها الخلود الدائم إما فى الجنة وإما فى النار .



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا
فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ
بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ
وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

بعد أن تحدث الحق تبارك وتعالى عن الجنة . . وأعطانا مثلا يقرب لنا صور النعيم الهائلة التي سينعم بها الإنسان في الجنة . . أراد أن يوضح لنا المنهج الايماني الذي يجب أن يسلكه كل مؤمن . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يكلف كافرا بعبادته . . ولكن الانسان الذي ارتضى دخول الايمان بالله جل جلاله قد دخل في عقد إيماني مع الله تبارك وتعالى . . وما دام قد دخل العقد الايماني فانه يتلقى عن الله منهجه في افعل ولا تفعل . . وهذا المنهج عليه أن يطبقه دون أن يتساءل عن الحكمة في كل شيء . . ذلك أن الايمان هو إيمان بالغيب . . فاذا كان الشيء نفسه غائبا عنا فكيف نريد ان نعرف حكمته . .

إن حكمة أي تكليف ايماني هي : انه صادر من الله سبحانه وتعالى ، ومادام صادرا من الله فهو لم يصدر من مُساوٍ لك كي تناقشه ، ولكنه صادر من إله وجبت عليك له الطاعة لأنه اله وأنت له عابد . . فيكفي أن الله سبحانه وتعالى قال افعل حتى نفعل . . ويكفي أنه قال لا تفعل حتى لا نفعل . .

الحكمة غائبة عنك . . ولكن صدور الأمر من الله هو الحكمة ، وهو الموجب للطاعة . . فأنا أصلي لأن الله فرض الصلاة ، ولا أصلي كنوع من الرياضة . . وأنا أتوضأ لأن الله تبارك وتعالى أمرنا بالوضوء قبل الصلاة . . ولكنني لا أتوضأ كنوع من النظافة . . وأنا أصوم لأن الله أمرني بالصوم . . ولا أصوم حتى أشعر بجوع الفقير . . لأنه لو كانت الصلاة رياضة لا ستبدلناها بالرياضة في الملاعب . . ولو أن الوضوء كان نظافة لقمنا بالاستحمام قبل كل صلاة . . ولو أن الصوم كان لنشعر بالجوع ما وجب على الفقير أن يصوم لأنه يعرف معنى الجوع . .

اذن فكل تكاليف من الله نفعلها لأن الله شرعها ولا نفعلها لأى شىء آخر .. وكل ما يأتينا من الله من قرآن نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأى صيغة أخرى .. ذلك هو الايمان الذى يريد الله منا أن نتمسك به ، وأن يكون هو سلوك حياتنا .

تلك مقدمة كان لابد منها اذا أردنا أن نعرف معنى الآية الكريمة : « إن الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » وعندما ضرب الله مثلا بالبعوضة .. استقبله الكفار بالمعنى الدنيوى دون أن يفطنوا للمعنى الحقيقى .. قالوا كيف يضرب الله مثلا بالبعوضة ذلك المخلوق الضعيف .. الذى يكفى أن تضربه بأى شىء أو بكفك فيموت ؟. لماذا لم يضرب الله تبارك وتعالى مثلا بالفيل الذى هو ضخم الجثة شديدة القوة .. أو بالأسد الذى هو أقوى من الإنسان وضرب لنا مثلا بالبعوضة فقالوا : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » .. ولم يفطنوا الى أن هذه البعوضة دقيقة الحجم خلقها معجزة .. لان فى هذا الحجم الدقيق وضع الله سبحانه وتعالى كل الأجهزة اللازمة لها فى حياتها .. فلها عينان ولها خرطوم دقيق جدا ولكنه يستطيع أن يخرق جلد الانسان .. ويخرق الأوعية الدموية التى تحت الجلد ليمتص دم الانسان ..

والبعوضة لها أرجل ولها أجنحة ولها دورة تناسلية ولها كل ما يلزم لحياتها .. كل هذا فى هذا الحجم الدقيق .. كلما دق الشىء احتاج الى دقة خلق أكبر ..

ونحن نشاهد فى حياتنا البشرية أنه مثلا عندما اخترع الانسان الساعة .. كان حجمها ضخما جدا لدرجة أنها تحتاج الى مكان كبير .. وكلما تقدمت الحضارة وارتقى الانسان فى صناعته وحضارته وتقدمه ، أصبح الحجم دقيقا وصغيرا ، وهكذا أخذت صناعة الساعات تدق .. حتى أصبح من الممكن صنع ساعة فى حجم الخاتم أو أقل .. وعندما بدأ اختراع المذياع أو الراديو كان حجمه كبيرا .. والآن أصبح فى غاية الدقة لدرجة انك تستطيع أن تضعه فى جيبك أو أقل من ذلك .. وفى كل الصناعات عندما ترتقى .. يصغر حجمها لأن ذلك محتاج الى صناعة ماهر والى تقدم علمى ..

وهكذا حين ضرب الله مثلا بالبعوضة وما فوقها .. أى بما هو أقل منها حجما .. فإنه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا الى دقة الخلق .. فكلما لطف الشىء وصغر حجمه

احتاج الى دقة الخلق . . ولكن الكفار لم يأخذوا المعنى على هذا النحو وإنما أخذوه بالمعنى الدنيوى البسيط الذى لايمثل الحقيقة .

فالله سبحانه وتعالى حينما ضرب هذا المثل . . استقبله المؤمنون بأنه كلام الله . . واستقبلوه بمنطق الايمان بالله فصدقوا به سواء فهموه أم لم يفهموه . . لأن المؤمن يصدق كل ما يجيء من عند الله سواء عرف الحكمة أو لم يعلمها . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

إن كل مصدق بالقرآن لا يطلب تأويله أو الحكمة فى آياته . . ولذلك قال الكافرون : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » ويأتى رد الحق تبارك وتعالى : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » . . ومن هم الفاسقون ؟ . . هم الذين

ينقضون عهد الله . . أول شيء فى الفسق أن ينقض الفاسق عهده . . ويقال فسقت الرطبة أى بعدت القشرة عن الثمر . . فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرة ملتصقه بالثمرة بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها . . فاذا أصبحت الثمرة

أو البلحة رطبا تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة . . هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله . . ينسلخ عنه بسهولة ويسر ، لأنه غير ملتصق به . . وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه . .

فلا تؤدى الصلاة مثلا وتفعل ما نهى الله عنه لأنك فسقت عن دينه . . والذى أوجد الفسق هو أن الانسان خلق مختارا . . قادرا على أن يفعل أو لا يفعل . . وبهذا الاختيار أفسد الانسان نظام الكون . . فكل شىء ليس للانسان اختيار فيه تراه يؤدى مهمته بدقة عالية كالشمس والقمر والنجوم والأرض . . كلها تتبع نظاما دقيقا لا يختل لأنها مقهورة . . ولو أن الإنسان لم يخلق مختارا . . لكان من المستحيل أن يفسق . . وان يبتعد عن منهج الله ويفسد فى الأرض . . ولكن هذا الاختيار هو أساس الفساد كله .

